توظيف الامام علي (ع) للشعر في نهج البلاغة

أ. د. عبد الحسن علي مهلهل

أ.م.د. عادل راضي الزركانـــي

الملخّص:

يحاول هذا البحث الوقوف على مواطن التوظيف الشعري للامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) وإبراز صورة التوظيف عنده في كتابه نهج البلاغة. وقد اقتضت الخاصية البحثية الوقوف على نهج البلاغة بوصفه سفراً بلاغيا ارتكز على الصوت الهادر لأمير البلاغة الامام علي (ع) وأبرزت الدراسة أن توظيفاً شعرياً واضحاً تجلّى في خطب الامام علي (ع) وما استخدمه الامام في كلامه ورسائله ليزيدها تأثيراً وتفاعلاً لدى المتلقي.

والقارئ لصور التوظيف لدى الامام علي (ع) تنبؤه عن تمكّنٍ عالٍ من ناصية اللغة والبلاغة.

المقدمة:

لا يخفى على كلّ لبيب، أن القيمة المعرفية التي حظي بها نهج البلاغة جعلت الباحثين والدارسين لنصوصه يقفون حيارى أزاء ما فيه من تماسك نصي وانسجام أسلوبي،لذا كان لزاما منذ البدء أن يحتاط الدارس لنصوص النهج سواء أكانت(خطبا أم رسائل أم حكما)، لأن القراءة النقدية الواعية أو الممارسة التأويلية لأي نص أدبي يمتلك مواصفات إبداعية من نمط خاص،لابدّ أن تتوخّى وعياً بالنص المدروس،تقوم أصلا على مهمتين: الأولى،هي معرفة الوعي الذي يحمله النص، والثانية:إدراك الوعي التأويلي للنص موضع الدراسة،حتى يمكن لدارسة النصوص أن يقدم للقراء ممارسة نقدية تسعى لتحقيق وحدة اندماجية بين الخطاب والمتلقي.

ولأن فعل القراءة يستند إلى ركني: (التاريخية، والجماعية) فقد تحولت على وفق هذه الممارسة إلى فعل لإنتاج المعرفة التي تعني قدرة الذات المتلقية للخطاب، وهي بذلك لا بد أن تلد فهما، وأقصد هنا إلمام المتلقي بالنسق المعرفي الذي يندرج تحت النص بوصفه خطابا معرفيا.

لا يكاد يختلف اثنان على أن نصوص نهج البلاغة هي نصوص هيّابة تحتاج إلى قلم نقدي سيال،لأن هذه النصوص لم تكن موردا فكريا أو عقائديا فحسب، بل كانت موردا أدبيا خصبا تدل دون أدنى ريب على أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قد أمسك بزمام الفصاحة والبيان بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ومن هنا تدفق صوت أمير المؤمنين(عليه السلام) هادرا بخطبه الشريفة ورسائله الموجهة إلى جمهور المؤمنين من أصحابه أو إلى عامة المسلمين في مدة خلافته الشريفة، ولقد أقدمنا على هذه الخطوة لتكون مدخلا لدراسات واسعة قادمة في خطب نهج البلاغة بإذن الله تعالى، وإنا لنرجوا من وراء ذلك إحياء نهج البلاغة ونصوصه من خلال التحليل والربط وبيان مدى أهمية توظيف النصوص الشعرية في النص الخطابي.

توظيف الإمام علي (ع) للشعر في نهج البلاغة:

النص فضاء ذو معان متعددة،والشعرية تبعا لذلك بحثٌ في هذا الفضاء، والنصَّ

هو موضوع الشعرية التطبيقي. وهذا يعني أن تكون هناك صلة ما بين الشعرية وموضوعها، أي ما بين النص وبين أدواتها لأنها تسعى للكشف عن قوانين الإبداع في النص الأدبي،بوصفه نصا أدبيا لا أثرا أدبيا،لان التفريق بين النص والأثر يبدو جليا لا يحتاج إلى عناء كبير،لا سيما في الإنتاج والدلالة، وهنا تصادفنا وجهة النظر الآتية: ليس النص هو موضوع الشعرية، بل جامع النص أي مجموع الخصائص العامة أو المتعالية التي ينتمي إليها كل نص على حدة، ومن هنا يأتي التفريق بين الأثر والنص، وهو أن الأثر الأدبي من إنتاج المؤلف الحقيقي، أما النص فهو من إنتاج القارئ الذي يوسع من إبعاده بالقراءة، ذلك أن العمل الأدبي موجود وموضوع الشعرية هو العمل المحتمل، أي العمل الذي يولد نصوصا لا نهائية، لا سيما إذا ما سلمنا بأهمية القراءة الانبثاقية للنص وعلاقة تلك القراءة بموضوع الشعرية حين تخضع لها، أي

انطلاقها من النص بوصفه بنية ذات مرونة في استنباط القوانين الإبداعية [1].

ومن الجدير بالذكر هو أن الشعرية، هي:«كمال النصوص الأدبية، وهي شكلها الأعلى بوصف هذه الصفة ميزة جوهرية تحدد النوع الأدبي، بوجه عام، أولا،وبوصفها من جانب آخر،علامة على بلوغ النص الأدبي، كمال شكله التجريدي، مثاله النوعي ومرتبته العليا، لحظة القصيدة بوصفها الشكل والوسط الأمثل لظهور الشعرية وانفتاح المخيلة على كل ممكناتها»[2].

إذاً هي (المعاني الشعرية) المنجزة بطريقة شعرية عند صدور آلية عمل الذهن وأسلوب تكوينها معرفة حدود الشاعر الآخر في انجاز قصيدته كمية دهشتها لدى المتلقي النوعي،ولدى الشعراء الآخرين، أو هي بعبارة وجيزة،ما يسميه النقاد بـ (سر الصنعة) هي المزية التي لا يتعرف على وجودها في نص (ما)، إلا الذي مارس الصناعة ذاتها، نعني ذلك الشاعر القارئ الذي يتمكن من رؤية عظمة المعاني، وطرائق تركيبها قلق مؤلفها، وفتحه المعرفي، في النص ذاته، قبل أن يحتويه شكل ما، أو سواها. وهذه مسألة هي جوهر إعجابنا ودهشتنا من نص معرفي إبداعي، منجز على وفق مبدأ الشعرية، مثل: «نهج البلاغة«[3].

إن نصوص نهج البلاغة قد تجاوزت الحد الأعلى لشاعرية النص الطاغي بوجدانيته العامرة بالمعاني الحسية التي لا يمكن للآخرين أن ينالوها إلا عبر وسائل التخيل الفاعلة المستخدمة في الشعر.

وهنا يمكن أن نضع سؤالا استنادا إلى غنى النصوص الشعرية بشاعريتها، وقدرة مبدعها على خلق أشكال شعرية رسمية يطلق عليها قصائد، هو: لماذا امتنع مؤلفو هذه النصوص عن أداء قصائد ذات مضامين واضحة بطرق شعرية شائعة لا سيما أن ثقافة العصر الذي عاشوا فيه، ونظرته السامية للشعر أمر يحرض على أداء مثل حدوث هذا الفعل؟.

إن الإجابة عن مثل هذا التساؤل يقودنا إلى الإقرار بأن مثل هذه النصوص، هي نصوص تراثية كتبت في عصر معين، وفي نمط ثقافة معروفة لدى المؤلف، ومصادر تكوينها الداخلي، ومكوناتها المعرفية، فضلا عن تأريخية هذه النصوص، والحاضنة الاجتماعية لها[4].

ولما كانت الشخصية التي نتحدث عنها هي شخصية أمير المؤمنين (ع)تتمتع بصفات نادرة، ومواهب خاصة سوف تحيلنا بالتأكيد إلى نمط خاص من الثقافة فضلا عن مواصفات أخرى، ولسنا نحسب أو نتوقع أن هناك من يطالبنا باستحضار الجواب نفسه، بمعنى، أن نرى مضامين كتاب:(نهج البلاغة) محفوظة ومقيدة على ما تعارف عليه النقاد أو على ما اصطلحوا على تسميته بـ «ديوان شعري»[5]. ومما لاشك فيه أن نصوص نهج البلاغة تستمد سلطتها وقوتها من خلال تأثيرها في المتلقي من خلال ارتباطها بالموروث الثقافي والأدبي وحتى النفسي للمتلقي، ومدى التفاعل الذي سيقيمه مع النص،، ومما «يدركه المتلقي المتخصص من انتظام المداخلات النصية في خطب الأمام علي (ع)، وكتبه، وحكمه، ومواعظه، بمفردات وتراكيب، وجمل ونصوص، من القرآن الكريم،والحديث النبوي الشريف، أو من الشعر أو المثل، والحكمة، كشذرات لتؤدي

معانيها التي ابتغاها بجانب مبناها، الذي لم يكن بمعزل عن سدى النص ولحمته»[6].

تعيش نصوص نهج البلاغة نمطا خاصا من التعبير الشعري، فهي لا تلامس أبدا حافة اللغة الاعتيادية على العكس من نصوص كبار الأدباء والشعراء، ممن تنحدر عندهم النصوص أحيانا، فتهبط مهبطا تضع صاحبها في دائرة المساوئ النقدية، كما هو الحال مثلا مع المتنبي وأبي تمام والبحتري، وغيرهم، فالمرجأ أو المكتوم من نصوص نهج البلاغة هو الذي شكل قوام شعريتها، وهنا تصبح هذه النصوص، في حاجة ماسة إلى قارئ من نمط خاص لا يعرف الفشل ولعل أشهر علامة فارقة في نصوص نهج البلاغة ما فيها من بعد مجازي يرتكز على فنون البيان وأساليب العربية، ونعضد هذا الرأي بما قاله المرحوم الدكتور المخزومي حين سأل: هل كان الإمام علي (ع) شاعرا ؟ فأجاب بعد تأمل: نعم كان شاعراً، لكن في نهج البلاغة [7].وذلك يعني أن المرحوم المخزومي قد أدرك إدراك الناقد العارف، شعرية نصوص النهج، مما يدل على عمق شعريتها، واستبطان تلك الشعرية فكرة. ولم يكن (ع) بعيدا عن الشعر والشعراء،فقد ورد عنه رأي نقدي يدل عل فهم ثاقب وبصيرة متوقدة، في فهم الشعر وتذوقه، إذْ روي أن رجال جيشه في صفين ذات ليلة قد تسامروا على عادة العرب، فكان موضوع تلك الليلة الشعر وأفضليته، واختلفوا في أي الشعراء أفضل ؟ فاحتكموا لعلي (ع) فقال: «كل شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب في القول واحد، لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وإن يكن أحد أحسنهم، فالذي لم يقل عن رغبة ولا رهبة،(امرؤ القيس بن حجر الكندي،) فإنه كان أجودهم بادرة وأصحهم نادرة»[8]. لقد أفاض الدكتور المرحوم ناصر حلاوي في تحليل مقالة الإمام علي (ع) السابقة، واستدل فيها على حقائق نقدية مهمة، منها: ما فيها من روح أسلامية تدعو إلى التريث في الحكم، وعدم التسرع، لأن ذلك يؤدي إلى إضاعة جهود الشعراء وقدراتهم الفنية، ثم أنها تدل على نظرة فاحصة، للشعر والشعراء، وترشيح من هو المستحق في تقدم صفوفهم، ولم يكن رأيه (عليه السلام)، انطباعيا، بل يدل على نظر ثاقب، وتفهم عميق للشعر والشعراء[9].

ومن هنا فقد كان الإمام علي (ع) متلقيا واعيا للشعر على قلته في خطبه الشريفة، التي وردت في كتابه (نهج البلاغة)، وسنحاول بإذن الله تعالى تبيان الأثر الجمالي لتوظيف هذه النصوص الشعرية في خطب النهج، وما تشكله من أواصر النسيج النهجي بوصفه شيئا جوهريا في العملية الإبداعية.

صور التوظيف الشعري:

يقول جان كوهن: «إن للشعر قوة ثانية للغة، وطاقة سحر، وافتنان»[10].

ومن هنا أدرك كثير من الأدباء والمنشئين،أهمية الشعر وقوته في نصوصهم النثرية ولعل الانفتاح الرحب للإمام علي (ع) على المورث الشعري، وتداخلها معه مهد لرفد الدلالة وتعزيزها، حين أدرك (ع) ما للشعر من أثر في نفس المتلقي، فأماط اللثام عن مهارته في التعامل معه، ووفرة اطلاعه عليه[11].

ولسنا هنا بصدد دراسة ما يسميه النقاد القدامى بالتضمين أو ما يعرف عند المعاصرين بالتناص، وإنما نبحث عما نسميه بتوظيف الإمام علي (ع) للشعر في خطبه الشريفة، وتبيان أثرها الجمالي، ووظيفتها الفنية، فقد درس الدكتور كاظم عبد فريح مايسميه: بالاقتباس والتضمين في نصوص نهج البلاغة من وجهة نظر أسلوبية[12].

إن التراث الشعري العربي مستودع ضخم لايتوانى الإمام علي(ع) من الرجوع إليه، فمرة يأتي الشعر في خطبه شطرا، ومرة يأتي بيتا كاملا وذلك تبعا لمقتضيات (مقتضى الحال)، وكلما استدعى الأمر ذلك،لاسيما إذا سلمنا أن هذه الأبيات قد حققت شيوعا لدى الجماهير آنذاك، فلم يعد الأمر خافيا عنهم لا في الدلالة أو في السياق، مما هيأ لها إمكانية إدخالها في دائرة التعالق النصي، وهنا يأتي دور المنشأ في تلقيها وتوظيفها جماليا ودلاليا[13].

إن استشهاد الإمام علي (ع) بأبيات شعرية من عصر ما قبل الإسلام جاء توشيحا لنصه بثقافته اللغوية الأولى، ومخزونه الدلالي العميق، ليصب في الحقل الدلالي،[14].

ومما ورد من شعر ما قبل الإسلام مضمنا في خطبه (ع)، قوله: «ولقد أمرتُكم في هذه الحكومة أمري، ونخلتُ لكم مخزونَ رأيي، لو كانُ يطاع لقصير أمر، فأبتم علي إباء المَخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتابَ الناصح بنصحه، وضن الزائدُ بقدحه، فكنتُ أنا وإياكم، كما قال أخو هوازن:

أمرُتكم أمْري بمنعرجِ اللّوى

فلم تَستبينوا النصحَ إلا ضحَى الغد[15]

البيت للشاعر الجاهلي دريد بن الصمة من قصيدة يرثي بها أخاه (عبد الله)، وكان من سبب مقتل أخيه وهزيمة قومه، هو فوات فرصة النصح، لعصيانهم قائدهم، وسماع رأيه، وتجاهل خبرته عسكريا واجتماعيا، مما أدى إلى فوات النصر، ثم استبان لقومه بعد ذلك جهلهم وصواب رأيه)[16].

هذه الخطبة جاءت بعد فشل أبي موسى الأشعري في قضية التحكيم الشهيرة وخدعة عمرو بن العاص له، وفي مستهل هذه الخطبة يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر).

لقد استهل الإمام (ع) خطبته بجملة خبرية مؤكدة بأكثر من مؤكد، وهذا ما يسّميه البلاغيون بالخبر الإنكاري الذي يتصل بالمخاطب اتصالا وثيقا، بمعنى أن المخاطب هو الذي يحدد شكل الخبر، وقوته، فقد توالت أدوات التوكيد فيه لإزالة الشك والإنكار من ذهن جمهور المخاطبين،الذين تواطؤا جميعهم على عدم قبول النصح من أمير المؤمنين، (ع)، وهو يومئذ قائدهم الذي من المفترض أن يسمعوا له ويطيعوا، ولكن فسحة الحرية التي أتاحها لهم قد أفسدت عليه نصحه لهم ومشورته لهم. وجاء الخبر هنا على شكل الوصف الذي يكشف عن إستراتيجية التلقي الداخلي فيه، وإنتاج المعنى، طبقا لاختلاف الرؤى ومدى صلتها بثقافة العصر السائدة آنذاك.

لو تأملنا نصه (ع) آنف الذكر، لأدركنا كفايته في التعبير من حالة الإحجام الذي تلقاه من صحابته وجمهوره، في قبول رأيه،وعلى الرغم

من تلك الكفاية النصية فقد ضمنه بيتا شعريا يحمل المعنى نفسه، أو يكون مكملا له، وهو نص يكشف عن مد ى الانتهاك الذي تعّرض له رأي أمير المؤمنين (عليه السلام) من جمهوره.

كما ضَّمن (عليه السلام) مثلاً شهيراً، وهو: «لو يطاع لقصير أمر». وطبعا قصته معروفة لجمهور المخاطبين ولا يخفى معناه على الذائقة العربية آنذاك، وهي: أن قصيراً هذا هو مولى جذيمة المعروف بالأبرش أن لا يأمن (الزباء) ملكة الجزيرة التي استدعته لزيارتها وطلب ا لزواج منه، وكان قصيراً حاذقا فاستجاب لدعوتها، فقتلته، فقال قصير في ذلك: «لو يطاع لقصير أمر» فذهب قوله مثلا.[17]

إن استدعاء الإمام (ع) هذا المثل وجعله جزءاً من بنيته النصية لهو دلالة على مخالفة هؤلاء القوم لرأيه وهو الناصح لهم والعالم والمجرب لأمور الدنيا، وبتلك المخالفة توارثوا الحسرة والندامة وصار حالهم كالأبرش، ثم جاء بعد ذلك البيت الشعري ليكون طرفا في بنية التشبيه، فالمثل هنا قد تلقاه الإمام (ع) بوصفه جزءاً من ثقافة الجمهور ليعبر به عن تماثل الموقفين. وهذان المعنيان: (معنى البيت الشعري وقصته، ومعنى المثل وقصته) قد استحضرهما الإمام ليكونا مفيدين للإيجاز المنشود من جهة، وسرعة الفهم من جهة أخرى، اعتمادا على حافظة المتلقي المخاطب وفهمه لما وراء صيغتيهما من دلالة ومعان كثيرة.

إن توظيف النص الشعري هنا في هذه الخطبة قد جاء في سياق النسق المهيمن في الثقافة العربية السائدة في عصر الإمام (ع)، وذلك لجعل السياق يحكي دلالة معينة مقصودة لذاتها الأمر سوف ينشط الفاعلية الخبرية للنص العام أعني نص الخطبة، وجوها، استنادا للتفاعل الداخلي لعناصر النص ومقتضى حال المخاطب مع الأخذ بعين النظر، «أنه بالإمكان ربط ذلك بالمرجعيات الثقافية التي تحتضن النص بوصفه تعبيرا تداوليا يقوم بتمثيل سردي رمزي لوقائع خارجية»[18].

لقد أدرك ا لإمام أمير المؤمنين (ع) أن قصة المثل قد شكلت نسقا ثقافيا تداوليا عند المخاطبين من جمهوره، أما قصة البيت الشعري ؛ فهي الأخرى لا تخفى تداوليا عنهم. فقوله (ع) لهم في السياق ذاته: لذا قال: حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضن الزند بقدحه فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

فلمّا عَصّوني كنتُ منهم وَقد أرَى

غوايتَهم أو أنني غَيّرُ مهتدي

وما أنا إلا من غَزَية، إن غوتْ

غويتُ، وإن ترشد أرشد[18]

يتعلق بقول الشاعر (أخو هوازن) آنف الذكر.

وهذان البيتان لم يأت بهما الإمام (ع) في سياق خطبته إلا لتشابه الحالين.

فما أشبه حال أمير المؤمنين مع أصحابه بحال دريد بن الصَمة مع قبيلته. فلما «اجمعوا على مخالفته (ع) حتى شك في نصحه وظن أن النصح غير نصح، وأن الصواب ما أجمعوا عليه، وتلك سنة البشر، أذا كثر المخالف للصواب،اتهم المصيب نفسه. وقوله(ع): ضن الزند بقدحه، أي أنه لم يعد بعد ذلك رأي صالح لشدة ما لقي من خلافهم، وهكذا المشير الصالح إذا اتهم

واستغش، عشت بصيرته وفسد رأيه»[19].

والشعر لابد أن يخاطب وجدانية الإنسان، حتى يصبح إنسانيا، ذا تأثير عميق، أو هو كما يقول الباقلاني: «ذو مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة» [20]. ومن هنا جاء رفد النصوص النثرية بالشعر لما يمثله الشعر من قوة الشيوع والانتشار فضلا عن دلالته التي تلتقي مع دلالة الخطبة،على نحو ما نرى من ذلك، في خطبة أمير المؤمنين (ع) في خطبته الشهيرة المعروفة بالشقشقية، إذ يقول (ع): «فرأيت أن الصبر على هذا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا، حتى مضى الأول إلى سبيله فأدلى بها إلى فلان بعده،» ثم تمثل (ع) بقول الأعشى:

شَـتّـانَ مـا يـومـي عـلـى كُـورِهـا

ويـــوم حَـيـان أخـي جـــــابرِ

البيت لشاعر الجاهلية المشهور (الأعشى، قيس، أبو بصير،ميمون بن قيس، بن جندل) وهو من قصيدة شهيرة مطلعها:

علـقـم مـا أنـــتَ إلى عـامـــرٍ

الـنـاقـض الأوتـــــار والـــواتـــر

فـي مـجـدلٍ شـيّـد بـنـيـانـــــه

يـزّل عنه ظفر الطائـــر»[21] .

وحيّان وجابر أخوان،كان الأول صاحب شراب، ومعاقرة خمر،فقابل الأعشى بين سفره على ناقته في الهاجرة، وبين الاستقرار إلى جوار حيّان،ناعـــم البال[22].

وفسّر ابن أبي الحديد تفسيراً لقول أمير المؤمنين (ع) آنف الذكر قائلا:

«يقول أمير المؤمنين ع شّتَان بين يومي في الخلافة على من انتفض علي في الأمر، ومنيت به، من انتشار الحبل، واضطراب، أركان الخلافة، وبين يوم عمر حين وليها، على قاعدة ممهدة، وأركان ثابتة، وسكون شامل، فانتظم أمره، واطرد حاله، وسكنت أيامه» [23].

لقد حدّد أمير المؤمنين (ع)، فضاء دلاليا للفعل «أدلى»، ثم تحولت تلك الدلالة إلى قيمة معرفية، أو معيار قيمة، تنظم شؤون النص بشكليه (النثري والشعري) مما يجعل المتلقي في مساحة أوسع، لقبول التأويل آنف الذكر الذي جاء به ابن أبي الحديد، ممّا يشير إلى الفرق بين عهدين في الحكم: الأول عهد عمر بن الخطاب، والثاني: عهد أمير المؤمنين (ع).

إنّ بنية السرد الواردة في خطبته (ع) جاءت لتجعل المتلقي مستغرقا في سياق تأريخي من الأحداث الجسام، ولعل أهمها حدثا وأولها هو حادثة غصب الخلافة، فأصبحت الخطبة الشريفة ما يشبه المرويات السردية لتعلن عن وجود راوٍ انتدب نفسه للرواية ومروي له، عليه أن يكون مستعدا للإصغاء لتأويل الخطبة ووضعها في سياقها التاريخي. وهنا ينشطر النص إلى دلالات موجزة لكنها مكثفة المعاني تحمل مقاصد معينة مقصودة، فهي إذاً رسالة أدبية تشتغل بجمالياتها كما تشتغل بمقاصدها. إننا لا نجد تقاطعا دلاليا بين بنية الخطبة الشريفة ومعناها وبين معنى بيت الأعشى ودلالته النصية إلا على سبيل التفسير المعجمي للبيت. وبذلك يستقطب أمير المؤمنين (ع) نصا شعريا ليشكل نسيجا دلاليا مع نص خطبته الشريفة، وهي محاولة جادة لإشراك

المتلقي للبحث عن المسكوت عنه هناك والبحث كذلك عن مداليل الإقصاء التي طالما مارسها مكون معين ضد المحكومين وفي كل ذلك حرص واضح على إرسال رسالة إلى المتلقي مشبعة بالرموز، والقرائن، عليه أن يعيد ترتيبها على نحو سليم ليصل مقاصدها.

إنَ المتأمل لنصوص نهج البلاغة يجد نفسه أمام نوع خاص من النصوص تأتي هذه الخصوصية من كونها تحمل معا القيمتين «المعرفية والإبداعية في آن واحد، فهي نصوص شعرية كبرى إذا ما تم النظر إليها من ناحية الكم الغني الذي تمتلكه من مبدأ الشعرية الذي يقع منها بمنزلة النسغ الداخلي الذي يغذي شجرة معانيها المفعمة بالحياة في ذات اللحظة التي تكون فيها هذه النصوص من جنس (أدبي فكري) آخر غير شعري، إذا ما تم لنا النظر إليها من حيث إرادة مؤلفها، وقصده المعرفي، والنفسي، والمتمثل بإخراج نصه، وتحريره من مجموعة الشروط العرفية لإنتاج القصيدة» [24].

والمهم من هذا كله هو التصريح بأهمية نصوص نهج البلاغة من خلال ما تحمله من قيم معرفية وجمالية قد تأتت من خلال أسلوبها الشعري في أنجاز معانيها واختيار الشعرية وسيلة لتنفيذ الفكر بكل ما ينطوي عليه من بني أخلاقية نفسية، ومعرفية، خارجية وداخلية» [25]. ولعل في ذلك ما يؤكد رأينا في أنها نصوص راقية رقيا يتجاوز حدود الشعرية المتعارف عليها في النصوص الراقية سواء أكانت شعرا أو نثرا، تلك النصوص التي تضيق مساحتها الشعرية أمام ما تحمله نصوص النهج من طاقة أبداعية، والسبب يعود في ذلك إلى قدرة منتجها الذي يمتلك خصوصية التعبير وبناء النص.

ومما يشير إلى انسجام النص الشعري مع النص النثري في خطبة أمير المؤمنين (ع) وتواشجهما معا بشكل يصعب فك عرى التحامهما ؛ فلما تواترت عليه الأخبار من الأنبار باستيلاء أصحاب معاوية على المصر هناك، ثم قدم عليه عاملاه على اليمن (منهزمين) حيث استولى بسر بن أرطأة قائد جند معاوية عليها، فقام (ع) إلى المنبر ضجرا بتثاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي،فقال (ع): «ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها، إن لم تكوني إلا أنت تهبُ أعاصيرك، فقبحه الله، ثم تمثل بقول الشاعر:

لعمر أبيك الخير ياعمرو

على وضر من ذا الإناء قليل [26]

ثم قال:أنبت بسرا قد اطلع اليمن، وإني والله لا أظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم بمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم، وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم، وفسادكم، فلو أتمنت أحدكم على (قعب) لخشيت أن يذهب بعلاقته. أما ولله لو وددت أن لي بكم ألف فارس من فوارس بني غنم

هنا لكل ودعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم [27]

ثم نزل (عليه السلام) من المنبر» [28].

يبدو لي أن الإمام (ع)، قد استثمر هذين البيتين استثمارا دقيقا، ليضع جمهور المخاطبين أمام النص وجها لوجه، طلبا للأثر الذي سيتركه النص الشعري في المتلقي، وذلك بإبراز بعض

عناصر سلسلة الكلام، وحمل المخاطب على التنبه إليها (عناصر الكلام) بحيث إذا أغفل عنها شوه، النص،وإذا حللها، وجد لها دلا لات تمييزية خاصة، بما يسمح القول: إن الكلام يعبر، والأسلوب يبرر[29].

في قوله (ع): (ما هي إلا الكوفة). لقد جعل أمير المؤمنين (ع) الكوفة بهيئة مادية، وهي في قبضته: أي في تصرفه، فالأول: مجاز لغوي غير مرسل بوصفه استعارة قائمة، على التشبيه، والثاني: (في قبضته)، مجاز علاقته سببية لأن القبضة هي السبب في التصرف والتمكن، وبانتقال الخطاب من الأصحاب إلى خطاب الكوفة بقوله: (إلا أنت) فقد خرج من خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر، وعقد تشبيها بين الطرفين: الأول: الكوفة وما فيها من الفتن وتقلب الأحوال، وتباين الأهواء، والطرف الثاني: الأعاصير، بجامع وجه الشبه بينهما، هو إثارة التراب وفساد الأرض[30].

لقد أراد أمير المؤمنين (ع) من ذلك التمثيل بيت الشعر في معرض خطبته هو بيان ضجره من أهل الكوفة لما تثاقلوا عن الجهاد وتباطؤا عنه، وجا ء التمثيل على وجه الاستعارة، فاستعار (ع) لفظ: (الأنا، للدنيا) واستعار لفظ: (الوضر، للكوفة)، ووجه المشابهة بين الاثنين هو ما تشترك فيه الكوفة والوضر من الحقارة بالنسبة إلى ما استولى عليه خصمه من الدنيا، وما اشتمل عليه الإناء من الطعام، أما التشبيه هنا فهو (ضمني)، طرفاه يختفيان في النصين: (نص الخطبة وبيت الشعر)، والأهم من ذلك كله الغاية المتوخاة من التشبيه وهي بيان وجه التجربة الإنسانية التي اختلفت من حيث الزمن (زمن الشاعر وزمن أمير المؤمنين ع) [31]. وعلق الشريف الرضي (رحمه الله) على قول الشاعر الذي استدعاه الإمام (ع) قائلا: «والأرمية: جمع رمي، وهو السحاب، والحميم: وقت الصيف، وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر، لأنه أشد جفولا، لأن لا ماء فيه، وإنما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لا يكون الأكثر، إلا في زمان الشتاء، وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا. والاستغاثة، إذا استغيثوا، والدليل على ذلك، قوله: هناك لو دعوت أتاك منهم» [32]. يُبدى لنا من تعليق الشريف الرضي آنف الذكر هو: أن الإمام علي (ع) كان يقصد أن استدعاء هذا البيت الشعري في خطبته، وذلك لتشابه الحالين ولأن البيت له أثر كبير في التعبير عن حال أهل الكوفة وتقاعسهم وضجر إمامهم من سلوكهم، وتفوق خصمهم عليهم على الرغم من سلوكه الباطل.

وفي كتابه (ع) إلى أخيه عقيل بن أبي طالب (ع) الذي يقول فيه: «ولا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، ولا تحسبن ابن أبيك ولو أسلمه الناس متضرعا متخشعا، ولا مقرا للضيم واهنا ولا سلس الزمام للقائد ولاوطيء الظهر للراكب المتقعد ولكنه كما قال (أخو بني سليم):

فإن تسأليني كيفَ أنت ؟ فإنني

صبورٌ على ريبِ الزمان صليبُ

يعزَّ علي أن ترى بي كآبة فيشمتُ

عاد أو يُساء حبيب [33]

لقد أصبح النص الشعري جزءاً من بنية النص العام، وأصبحت الصورة التشبيهية واحدة بدليل وجود أداة التشبيه (الكاف) بوصفها أداة

تربط طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به)، وهنا يكون النص ذا وظيفة فكرية، هي التوضيح فضلا عن وظيفته الاجتماعية.

إن توظيف الإمام علي (ع) للشعر (على قلته) وتلقيه وبثه في نصوص خطبه أو رسائله إنما يدل على معرفة وبثه في نصوص خطبه أو رسائله، إنما يُنبئ بأنه على معرفة تامة بأهمية تلك الأشعار وأثرها في إثراء النص النثري وإرسال دلالة أخرى تعاضد دلالة النص الأول، فضلا عن القيم الجمالية والفكرية المتوخاة من وراء ذلك. فمرة يأتي النص معبرا عن الشكوى والتبرم، ومرة أخرى يأتي النص معبراً عن الحزن والألـم، من تقاعس أصحابه وجنده عن الأخذ بثأرهم من عدوهم، وتضامن أصحاب معاوية مع صاحبهم، وذلك كله يدلّ على تراكم نصّي بين النص النثري والنص الشعري، حيث يقود البناء الجديد إلى انسجام النصوص وتماسكها في لحمة واحدة، والخروج بالنص إلى فضاء جديد ذي دلالات جديدة، تعبر عما يسميّه البلاغيون بـ (مقتضى الحال). ولما كان النصّ هو «جمل متتابعة» [34] تتغير معانيه بتغير مواقع تلك الجمل في النص،وإذا كانت الكلمات تلزم معانيها المعجمية في النصوص، فإن ذلك التغير سوف يفتح مجالا أمام احتمالات دلالية جديدة تفهم في أغلب الأحيان من سياق النص العام.

وخلاصة القول: إن توظيف الإمـام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وتلقيه لنصوص الشعر العربي القديم (الجاهلي) وتقديمها للمخاطب يدل على انه أدرك أثر تلك النصوص في متلقيها، لأن «النص دائما سلعة تحمل قيمتها معها بقدر ما يحمل المتلقون من ثقافة ونظر نقدي وبقدر ما يحملون في درجات متفاوتة من حاجته إلى تلك المرجعيات التي تثري تفحصهم وقراءتهم،ومنهم وفي مقدمتهم النقاد المحترفون، فالمتذوق العفوي يسمع النص أو يقرأه ويستجيب له استجابة تحمل تأثيرا متبادلا بينهما: (النص والمتذوق). أما ما بعد المتذوق العفوي ؛ فالنظر في النص لديه نظرة تمعن مع تحليله واستنفاد إيماءاته، وقد يقتضي هذا رحلة بعيدة أو رحلات داخل النص تكشف خباياه ودواخله وإيحاءات ألفاظه، وما ينطوي في نسجها وطريقة نظمها وإيقاعاتها من دلالات، ثم فنية النص في تلمس الصفات الجمالية التي تكمن فيه. ويقتضي هذا كله خصوصية المتلقي وكفايته فيما يؤهله إلى ذلك [35].

ولقد سلمنا أن أمير المؤمنين (ع) هو متذوق واع للنصوص، ومدرك لأهميتها بما يمتلكه من مؤهلات لسانية جبارة منحته معرفة عميقة أستطاع من خلالها أن يربك الإطار الذهني لدى متلقيه، ثم يعيد ترتيب ذلك الإطار ترتيبا جديدا يوافق مقتضى حال الخطاب ليحقق من وراء ذلك استجابة خاصة لدى جمهوره.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث لا بد من الوقوف على أهم النتائج التي توصلنا اليها وهي:

1. ان النتاج الاسلوبي المتمثل بكتاب نهج البلاغة للامام علي بن ابي طالب (ع) وما ورد فيه من خطب ورسائل وكلام له علاقة بالموروث الثقافي الشعري والنثري لشعراء سبقوا عصر الامام (ع) أو عاصروه الأمر الذي يعكس مدى التأثر بالأدب حيث انتج توظيفاً شعريا وتلقياً ادبياً في معظم نصوص نهج البلاغة.
2. ان صور الارشاد والنصح والوعد والوعيد التي يثبتها الامام علي بن ابي طالب (ع) كانت تقتبس بعض مقوماتها من شعر الشعراء ونتاجهم لتكون قد أنتجت فضاءً جديداً.
3. لقد اكتسبت خطب الامام وكلامه دلالة جديدة استقت اشعاعها من الاطار الشعري المعتمد على الافعال والاسماء التي تحولت الى قيم معرفية تعاضدت في سياق واحد متماسك لا يمكن تقسيم حالة التآصر التي طغت على تراكيبه.
4. ان استثمار الامام علي بن ابي طالب (ع) للأبيات الشعرية ونثرها في اثناء كلامه البليغ لدليل واضح على ايمانه بأهمية النص ودوره في جذب المخاطب لا سيما في المواضع التي يميل بها المحتوى الى حسي واللامعقول الى معقول محسوس.
5. اعتمد الامام علي (ع) على فنون البلاغة بتراكيبها وبيانها وبديعها فكان للايجاز ميالاً وللتشبيه موظفاً، وللطباق مستعملاً وما هذا الميل والتوظيف بالاستعمال إلا ترسيخ لحالة التوظيف والتأثر والتلقي.
6. اتضح لنا أن الإمام علي (ع) وظف عشر أبيات من الشعر في نهج البلاغة كاملاً وكان توظيفه لدعم فكرته ورأيه الثاقب.

الهوامش

(1) ينظر مفاهيم شعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم حسن ناظم، 33، ط1، 1994

(2) مكانة الشعر (مقدمات في الأصـول النفسية والفكرية للقصيدة)، عادل عبدالله، 47، ط1، بغداد، 2009.

(3) ينظر المصدر نفسه: 54.

(4) ينظر المصدر نفسه: 51.

(5) ينظر المصدر نفسه: 52.

(6) ينظر الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة دراسة أسلوبية، د. كاظم عبد فريح،أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 2006، ص 2.

(7) مقدمة في النقد الأدبي، د. علي جواد الطاهر،

(8) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح عبد الستار فراج، 16 /297، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

(9) ينظر تفصيل ذلك في: محاضرات في النقد الأدبي، ناصر حلاوي، 55 56، ط2، بغداد، 1999

(10) اللغة العليا، جان كوهن، ترجمة أحمد درويش، 90، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة، 1999.

(11) الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة أطروحة دكتوراه (مصدر سابق):162، حيث أشار النقاد القدامى إلى أهمية الشعر وأثره في النصوص النثرية، فابن الأثير مثلا يقول: «من أحب أن يكون كاتبا أو يكون عنده، طبع مجيب، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك». المثل السائر: 1 / 169. وقال أبو هلال العسكري: «من لم يكن راوية لأشعار العرب تبين النقص في صناعته». الصناعتين: 138،

(12) ينظر الاقتباس والتضمين (مصدر سابق): 162 173.

(13) ينظر المصدر نفسه: 163.

(14) ينظر المعنى الحركي في بدائع الإمام علي (ع) / بحث، 259، د. كاظم مشكور العوادي، مؤتمر جامعة الكوفة،التربية الأساسية، السنة 2011، وأساليب البديع في نهج البلاغة (أطروحة دكـتوراه) خالد كاظم حميدي،167، جامعة الكوفة، 2011.

(15) – ديوان درين بن الصمة، ص

(16) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد،:2/ 204، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، 1959،وينظر (المصدر السابق): 168.

(17) ديوان دريد بن الصمة، ص

(18) ينظر شرح نهج البلاغة، محمد عبده، ج1 / 69، ط1، طهران دار ذي القربى،

(19) التلقي والسياقات الثقافية، د. عبدالله إبراهيم: 29، ط1، بيروت، د.ت 0

(20) سرح نهج البلاغة (محمد عبده)، مصدر سابق، 1 / الهامش، 69 70

(21) ديون دريد بن الصمة ص

(22) إعجاز القرآن، الباقلاني، تح السيد محمد صقر، 277، القاهرة دار المعارف، د.ت.

(23) ينظر القصيدة في ديوانه،تح محمد محمد

حسين،108، القاهرة 1950.

(24) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد)، مصدر سابق، 1 / 167.

(25) المصدر نفسه،: 1 / 168.

(26) مكانة الشعر (مصدر سابق): 58.

(27) نفسه.

(28) شرح نهج البلاغة (محمد عبده)، 1 / 54 56.

(29) ينظر الأسلوب والأسلوبية، د. عبد السلام المسدي، 66، ط5، لبيا، 2006.

(30) ينظر الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة (أطروحة دكتوراه) مصدر سابق، 166.

(31) ينظر المصدر نفسه.

(32) شرح نهج البلاغة (محمد عبده)، 1 / 55.

(33) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد)، 16 / 148.

(34) اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة عباس صادق، 218، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة،.1967

(35) محاضرات في تحليل النص الشعري، د0 عبد الجبار المطلبي، جمع د. وليد شاكر نعاس، 39، بغداد 2012.

المصادر والمراجع

1.الأسلوب والأسلوبية، د. عبد السلام المسدي، ط5، ليبيا، 2006.

2.إعجاز القرآن، الباقلاني، تح السيد محمد صقر، 277، القاهرة دار المعارف، د.ت.

3.الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح عبد الستار فراج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

4.الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة دراسة أسلوبية، د. كاظم عبد فريح،أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 2006، ص 2.

5.التلقي والسياقات الثقافية، د. عبدالله إبراهيم، ط1، بيروت، د.ت.

6.ديوان دريد بن الصمة، تحقيق د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، 1119

7.شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة، 1959.

8.القصيدة في ديوانه، تح محمد محمد حسين، القاهرة 1950.

9.اللغة العليا، جان كوهن، ترجمة أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة، 1999

10.اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة عباس صادق، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 001967

11.محاضرات في النقد الأدبي، ناصر حلاوي، ط2، بغداد، 1999

12.محاضرات في تحليل النص الشعري، د0 عبد الجبار المطلبي، جمع د. وليد شاكر نعاس،

بغداد 2012.

13.المعنى الحركي في بدائع الإمـام علي (ع) / بحث، د0 كاظم مشكور العوادي، مؤتمر جامعة الكوفة،التربية الأساسية، السنة 2011،وأساليب البديع في نهج البلاغة (أطروحة دكتوراه) خالد كاظم حميدي،167، جامعة الكوفة، 2011.

14.مفاهيم شعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم حسن ناظم، ط1، 1994

15.مقدمة في النقد الأدبي، د. علي جواد الطاهر، (المعلومات من الانترنيت)

16.مكانة الشعر (مقدمات في الأصـول النفسية والفكرية للقصيدة)، عادل عبدالله،، ط1، بغداد، 2009.

Summary:

This study is trying to focus on the poetic usage of Imam Ali bin Abi Talib (peace upon him) and highlight the usage poetic image in his book Nahj Albalagha. Due to stand on Nahj Albalagha because it is represents the voice of Imam Ali peace upon him. This study highlighted that is clear usage poetic reflected in the sermons of Imam Ali (peace upon him)،also، he use it in his speech and in his letters to increases the impact and interaction with the receiver.